

العدالة الاقتصادية والاجتماعية

في

مذهب الصحابي أبي ذر

وحياته ومجتمعه وسلوك أئمة

العدالة أو الديمقراطية الاجتماعية

المؤلف عضو في المؤتمر الاسلامي ومن قدماء علماء القرويين ودار الحديث  
الحسنية • يحمل شهادة العالمية الدكتوراه في العلوم الشرعية وشهادة الدبلوم "ماجستير"  
الدراسات العليا الاقتصادية – ودكتوراه الدولة في الدراسات الاقتصادية والاجتماعية الاسلامية  
– ويعمل في الجامعة أستاذ مادة الاقتصاد السياسي الدولي -الى جانب اختصاصه كباحث  
مؤلف في الاقتصاد الاسلامي-ومن المؤسسين لرابطة علماء المغرب وجمعية العلماء خريجي  
دار الحديث الحسنية وجمعية علماء سوس • □

بسم الله الرحمن الرحيم

- ( يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا لتعارفوا، ان أكرمكم عند الله أتقاكم)

قران كريم

- (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا)

قران كريم

- (أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد. كلكم من ادم، وادم من تراب لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى).

من خطبة الرسول في حجة الوداع

- "انما أهلك الناس قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد. والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها".

حديث رواه البخاري وأبو داود

- "ان الأشعريين إذا أرموا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم بآء واحد بالسوية. فهم مني وأنا منهم".

حديث رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري

-مرت إبل الصدقة على رسول الله فأهو بيده الى وبرة من جنب بعير فقال: "ما أنا بأحق بهذه البرة من رجل من المسلمين".

حديث رواه الامام أحمد عن الامام علي

- "ذلك شيء ثوابه عند الله وهذا معاش فالإسوة فيه خير من الأثرة" قول أبي بكر

لما طلب منه أن يفضل المجاهدين على غيرهم في العطاء.

رواه أبو عبيد في "كتاب الأموال"

- "والله الذي لا إله إلا هو ما من أحد إلا له في هذا المال حق أعطيه أو منعه، وما أحد أحق به من أحد": قول عمر بن الخطاب.

رواه أبو يوسف في كتاب الخراج

- "سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها": قول عثمان يخاطب أمراء الأجناد.

رواه ابن الأثير في التاريخ

-اني نظرت في كتاب الله فلم أر فيه فضلا لولد إسماعيل على ولد إسحاق: قول الامام علي لامرأة عربية لاحظت أن أعطاها مثل ما أعطى لمولاة لها من العجم.

رواه محمد يوسف في "حياة الصحابة"

تلك معالم أصيلة نهتدي بها في سبيل البحث عن حقيقة الديمقراطية الإسلامية على الشكل الذي دعا اليه الصحابي أبو ذر، الغفاري وطبقه على نفسه وأسرته. وبسبب اختلاله قامت معارضته لمعاوية بالشام، وبعثه الى المدينة بأمر من عثمان. ولما رفض التنازل عن مبادئ دعوته في إنفاق الكنوز وفضول الأموال، ونبذ الكماليات والاقتصار على الضروريات وتطبيق مبدأ الحق والعدل والمساواة ... نفاه الى الربذة، كما سيأتي بيانه .

## مقدمة

في سنة 1970م قدمت هذه الدراسة لنيل شهادة "الديبلوم" الدراسات العليا: "ماجستير" في الاقتصاد، حصلت على درجة "حسن جدا"1 وأتذكر أن من بين أعضاء لجنة المناقشة الدكتور كمال الدين شبانا. وكان من ملاحظاته - وقد كتبت على الصفحة الأولى "الحقوق محفوظة" - أن قال: "تبت على الكتاب الحقوق محفوظة، قبل أن تعلم هل هو مقبول من طرف اللجنة أولا؟ فأجبت بأن الآراء مثل الأبناء. والرجل لا يتنازل عن آرائه، كما لا يتنازل عن أبنائه. وللجنة كامل الحرية في تقويم الكتاب وتقديره، وأنا لن أتنازل عن جهدي وعملي، إلا لطلاب العلم. ومن حقي أن أكتب عليه مسبقا الحقوق محفوظة، فضحك من بالقاعة.

والأمر كذلك، فرغم طول الأمد، لم أضيع بنات أفكارني، فرأيت أن أجلوها اليوم (10-6-1961) وقد ظلت تختمر لمدة أربع وعشرين سنة. الأمر الذي يستدعي إعادة النظر وتعديل العنوان، كي تتجاوب مع تقدم البحث في الموضوع، فتمت على مرحلتين. وأنبه إلى أنني لا أقدم آراء أبي ذر ومبادئ دعوته فحسب، وإنما أقول بتحليلات اقتصادية واجتماعية موسعة على ضوءها. فالمرحلة الأولى تستهدف تحقيق آرائه، وأصول مذهبه، ومناطق فكره، والثانية - علاوة على الزيادة في التحقيق - تستهدف تحليلها على ضوء الاقتصاد المعاصر، أو الحياة المعاصرة، كنظام للحياة، وعلى هذا الاعتبار قامت منهجية البحث، فتحولت من جزء إلى جزأين: الأول في الجانب الاجتماعي "الديمقراطية الإسلامية" والثاني في تحليل آرائه الاقتصادية خاصة في الكنوز وفضول الأموال وأساليب استثمارها كمذهب اقتصادي.

والنافذة التي نطل فيها على الدراسة، تعتبر قاعدة أساسية، وتفكيرا أصيلا، عاش مع الإسلام في أول مهده، ورافقه منذ ظهوره، إنه تفكير الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري الذي

---

1- أنجزت هذه الدراسة ما بين سنة 1966 وسنة 1970 ، وقد ابتدأ فيها العمل مع البدء في جميع المواد "منهج الاقتصاد الإسلامي في إنتاج الثروة واستهلاكها".

عرف عنه منذ الصدر الأول أنه دعا إلى إنفاق الكنوز وفضول الأموال، انطلاقاً من عموم قوله تعالى: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب أليم) ومن أحاديث يرويها عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

على أساسهما طرح مبدأ المساواة، وحارب الاكتمال والاحتكار، واختلال التوازن، علماً بأن التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ودفع عجلة التقدم، متوقف على صرفهما، فكان بجهاده المنصب أساساً على الجانب الاقتصادي والاجتماعي، أول مصلح اجتماعي من نوعه في الإسلام، كما كان بشعبيته وواقع حياته المثالية أنبل صحابي اتخذ حياته وحياته أسرته نموذجاً حياً لتطبيق مبادئه، وأفضل من لا يدعو إلى أمر وهو على خلافه.

تلك إشارة خفيفة إلى مبادئ لها قيمتها، ووزنها الثقيل، جاءت ضمن أول دعوة لمست الحياة الاقتصادية والاجتماعية في خلافة عثمان، وتأبى أن تكون بطبيعتها مجرد تصرفات زاهد، يصدر عن سلوك شخصي، كما يتوهمه من قصر باعه عن تناول ثمارها.. وسترى في صلب الموضوع أن مقدار عطائه من بيت المال، يساوي مقدار عطاء الخليفة عمر بن الخطاب، وأن حياته وحياته أسرته، تساوي حياة عمر وحياته أسرته، وعمر لم يكن مجرد زاهد، يصدر عن سلوك شخصي، أو شاذ متطرف، كما قيل في أبي ذر، وإنما كان شخصية قوية يصدر عن كتاب الله وسنة رسوله.

ولأهمية آراء أبي ذر، وقوة حجمهما، وشدة وطأتها على الكانزين والاحتكاريين... حاولت بعض الجهات الموالية للحكم أيام خلافة عثمان وإمارة معاوية بالشام، أن تنال من شخصيته، والتشكيك في قيمة مبادئه، وأهداف دعوته، فنجحت في التشويش، ولم تنجح في إخفاء الحقيقة ورفع الواقع.

ومهما يكن من أمر، فالحقيقة الثابتة، أن أبا ذر خلف وراءه مذهباً اقتصادياً واجتماعياً، نطق به الأقدمون. وتضافرت جهود المفسرين والمحدثين والفقهاء والمؤرخين على نقل مبادئه وتدوين آرائه، كما سيأتي في صلب الموضوع.

وهنا يرد سؤال قد يطرح نفسه، ويقال: لماذا وقع الاختيار على فكر أبي ذر اقتصاديا، وواقع حياته اجتماعيا، كمنطلق لهذه الدراسة؟

وقع الاختيار على فكر أبي ذر اقتصاديا، وواقع حياته اجتماعيا، لسببين رئيسيين:

السبب الأول يتعلق بفكره ، ويوضع في الحساب أن أبا ذر كان ركيزة إسلامية، وصحابيا جليلا، دخل في الإسلام، وهو رابع أربعة ، فأواه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حضرته وضمه إلى أصفياه، فنال الحظوة والمكانة لدى خلفائه، بين عامة أصحابه وتهيأ له بذلك أن يستاق أسرار الشريعة من منابعها، ويعيش تطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ويساير استقرارها وصلاحتها من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حين اضطرابها وفسادها في خلافة عثمان ، ويرى - وهو الصدوق الأمين - كما يحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما سيأتي من الأحاديث - أن مبادئ دعوته ، وآرائه الحقيقية المستخلصة من المصادر الشرعية، والمحفوظة من تحريف المحرفين ، تمثل جانبا من حقيقة الإسلام، حملها ورواها عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وكلف بتبليغها للناس.

فكان من شأن تفكيره بحكم اتصاله بنشأة الفكر الاقتصادي والاجتماعي في الإسلام، والمتبلور أساسا في تركيزه على الكنوز وفضول الأموال الواردين في القرآن والحديث ، ويؤكد ما طالب به معاوية وأغنياء الشام من إنفاقهما على المحتاجين، ويؤكد ما طالب به الخليفة عثمان من إقامة التكافل، وتطبيق مبدأ المساواة، أن يمد البحث بمنهاج أصيل ، يمكنه من دراسة الأوضاع في عهدها الذهبية، ويعطي فرصة ثمينة نستخلص خلالها صورا حية، ومناهج عملية، تكون نبراسا نستتير به فيما نريد من بناء مجتمع إسلامي ، اقتناعا من البحث بأن أبا ذر هو الصحابي الوحيد المشهور اجتماعيا بالفكر الاقتصادي والاجتماعي الإسلامي، إلى جانب مواقف عمر المتخذة باسم الدولة ولصالحها.

والسبب الثاني يتعلق بواقع حياته، والتعبير بواقع الحياة، يعني التركيز على الجانب العملي، ومحاولة دراسة الحياة الاجتماعية في أول مهادها. وقع الاختيار على دراسة واقع هذه الحياة، لما تعطي من صور اجتماعية، تنبئ عن شخصية إسلامية متكاملة، قيل حولها وقيل ... على مثلها يمكن للباحث - بحكم اتصالها بنشأة العدالة الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام - أن يعتمد فيما يحاول من كشف الحقائق. لو تزحزح كل ما قد يعلق بها من الأوهام، كما سنرى في جولات مقبلة.

ولذلك ارتأينا قبل دراسة آرائه، أن نتعرف على معطيات واقع حياته، ونحاول أن نبرز من خلال مراحلها الشخصية والاجتماعية المميزات والعوامل المكونة لشخصيته، على اعتبار أن قيمة آراء الرجل جزء لا يتجزأ من قيمته الشخصية والاعتناء بالآراء، دون حاملها من باب الاعتناء بالفرع دون الأصل.

وإني لأرجو بهذا الاختيار أن أكون قد أديت بعض الواجب وأخلصت للفكرة القائلة بأن الأبحاث التي تجري ضمن الدراسات الجامعية، ينبغي أن تسد فراغا علميا، أو تحل مشكلا قائما، أو تخلص تراثا، أو تكتشف حقيقة جديدة...

إلا أن أبا ذر ستتحرك الدراسة على مستوى فكره، ليس هو أبو ذر المنطبع في أذهان البعض، والذي أراوده قنطرة يتجاوزون عليها إلى تزكية ما كانوا يستوردون، أيام كان الفكر الماركسي يصدر إلى العالم الثالث، وزعموا أنه يحرم الملكية الخاصة. وإنما هو أبو ذر الذي ملك الإبل والغنم، واستغل الأرض، ودعا إلى إنفاق الكنوز وفضول الأموال، اقتداء بنبيه، ولم يشذ عن شيء قاله أو فعله، كما سيأتي بيانه.

إن موضوع آراء أبي طر - كما في تطورات حياته - من الموضوعات التي طالما كانت مثار النزاعات والخلافات، وتعرضت للتحريفات والادعاءات، نتيجة الفوضى القائمة في آرائه، وعدم تحديدها. وأخطر دعاء يزلزل كيان الشريعة الإسلامية في نفوس المؤمنين، وينفث روح التشكك في قيمتها لدى ضعفاء الإيمان، ويستدعي إعادة النظر في كل ما رواه أبو ذر من الأحاديث

الصحيحة، المخرجة في منافق كان يدعي الإسلام بالشام، مع تحديثه باسم الرسول صلى الله عليه وسلم، فقامت هذه الدراسة بمحاولة تقويم الاعوجاج خدمة للحقيقة، واسم اليهودي هو ابن السوداء المعروف، بابن سبأ، كما سيأتي في صلب الموضوع.

ولعل التشويش، بل التزييف الذي باشره الحزب الأموي ضده عند قيام معارضته، أيام ولاية معاوية بالشام، قصد نعيمة أهداف دعوته هو الذي ضبب على جوانب الموضوع، ولم تزل بصماته عبر التاريخ، فمكّن بعض المستشرقين والمستغربين من الخوض في آرائه وطبيعة مذهبه.

تمر الأجيال والسنون، والأسئلة في الموضوع ما تزال تطرح نفسها، وتهتف بالجواب، سواء من الناحية المذهبية، أو من الناحية الشخصية والاجتماعية .. وكان من حق الجميع أن يتساءل:

حقيقة أبي ذر، وماهي مبادئ دعوته؟

- لماذا عرض في خلافة عثمان، ولم يعارض في خلافة أبي بكر وعمر؟
- هل معارضته سياسة قامت ضد شخص عثمان في الخلافة أو اقتصادية واجتماعية قامت ضد الأوضاع السائدة في عهده؟
- هل الخلاف بينه وبين معاوية بالشام خلاف سياسي، أو مذهبي؟ وهل ما عارض بالشام، ونبه إلى سوء عواقبه هو البذرة الأولى للفتنة الكبرى؟
- ماهي آراء أبي ذر الحقيقية؟ وما قوام مذهبه؟
- هل كانت آراؤه روحا سائرة، تحملها النصوص، أو نظريات اقتصادية مقننة؟
- هل صحيح أن تسربت إليه آراء من شيوعية "مزدك" أو قد عرف نوعا من الآراء الإسلامية المتعلقة بتوزيع الثروة قبل أن يلتحق بالشام؟

-هل كان يحرم الملكية الخاصة، كما يقال، أو كان مصلحا اجتماعيا يرفض الاكتناز

والاحتكار، ويدعو إلى نوع من العدالة الاقتصادية والاجتماعية اقتداء بالرسول؟

وعلى مستوى آفاق البحث نتساءل: هي في دراسة الأوضاع، على ضوء واقع حياة أبي ذر وأسس مذهبه ما يكفي بتسليط بعض الأضواء على جوانب المشاكل المعلقة على اختلافها وتنوعها؟ بل هل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام ما يتكفل بتنظيم كل فرع من فروع الحياة الجديدة، دون اللجوء إلى نظام سواه؟

انطلاقا من مثل هذه الأسئلة الملحة التي كان على البحث ان يقول فيها كلمته رغبة في سبر غور المبادئ الإسلامية، ومدى اقتدارها على تنظيم هذه الحياة ، استلهمت من الدواعي والأسباب ما يقضي بأهمية التركيز على المذهب الاقتصادي والاجتماعي لأبي ذر، وواقع حياته الشخصية والاجتماعية ، نظرا لاشتماله على عنصرين أساسيين هامين متلازمين ، قلما يجمعهما موضوع واحد ، هما الاقتصاد والاجتماع ، إذ لا اقتصاد بدون اجتماع ، ولا اجتماع بدون اقتصاد، ووجود أحدهما يستلزم الآخر ، مثلا من أعطى للناس مائة مائة ، فقد ساوى بينهما اقتصاديا واجتماعيا .

وللوفاء للموضوعية ، يحسن التنبيه إلى أن البحث لم يلتزم بتوضيح ما سموه باشتراكية أبي ذر على كثرة القول حولها، ولا بدراسة الاقتصاد الإسلامي على النحو الذي أوضحناه في "منهج الاقتصاد الإسلامي في إنتاج الثروة واستهلاكها" في ثلاث أجزاء وإنما يلتزم بدراسة ما يدور في فلك مذهب أبي ذر وواقع حياته ومجتمعه وسلوك قاداته ، كما أن البث لم ينتصر لأي مذهب ، أو يتقمص أي فكرة ، أو يفترضها، أو يعمل لصالحه، أو يحط من قيمة أي مفكر ، أو يزكيه ، أو يقلل من أهمية أي رأي أو يتبناه ... وإنما يعتمد التمحيص، ويستمد قوته من توفيق الله، ويركز اقتصاديا على مذهب أبي ذر ، كما يركز اجتماعيا على واقع حياته ومبادئ دعوته وموقعها في الحياة العامة ، تاركا القول الفصل لما يثبت من النصوص ، وما يسجل من النتائج ، جريا وراء تمكين البحث من صنع نفسه بنفسه، على أن يكون الإسلام حجة على أبي ذر وغيره ولا عكس.

والمحيط الذي سبغ فيه البحث، قد كلف الإطلاع على جوانب الاقتصاد المعاصر بمختلف مذاهبه، ودراسة ما يمكن أن يتصل بالاقتصاد الإسلامي في أصوله وفروعه، أملا في المقارنة عند الاقتضاء، ومحاولة استنباط النظريات الجديدة من محتويات النصوص القديمة، بحثا عن الأصول، والاستقلال الذاتي للاقتصاد الإسلامي، الأمر الذي يسر الوصول إليه، إلا بإطالة التفكير، وقراءة كل قديم وجديد ممكن.

وطبيعي في موضوع يتعلق باستخلاص النظام الاقتصادي من الشريعة كجزء من أجزائها، وتحليله على ضوء الاقتصاد المعاصر كنظام للحياة، سواء في مذهب أبي زر، أو المذهب الاقتصادي الإسلامي العام ... طبيعي أن تتعدد المشاكل، وتتنوع، ويكون فيه الباحث عرضة للتضحية في كل مرحلة من مراحل بحثه. وإلى ذلك يشير الدكتور فتح الله العلو إذ يقول حسب نظريته: "يصعب جدا استخراج أفكار اقتصادية واضحة من التعاليم الإسلامية، لأن الإسلام دين جاء بفلسفة عامة للحياة"<sup>2</sup> نتفق معه في الصعوبة، ونخالفه في عدم وضوح ما يستنبط بعد استنباطه.

أضف إلى ذلك أن أغلبية آراء أبي زر، التي تعتبر مادة الخام بالنسبة للبحث، لم تنسب إلى المصادر الأصلية، فعملنا على نسبتها، وأن أكثر الأحاديث الموضحة لمذهبه، وردت مجردة من اسم الراوي والمخرج، فأنفقنا وقتا طويلا في سبيل التعرف على مخرجها، وقد وصل البحث ببعضها إلى ستة أو سبعة من المخرجين.

والجدير بالذكر أن البحث لم يستعن عند الجمع وإرادة تخريج الأحاديث بأي معجم حديثي في أي نص كان، وإنما تسلح بالصبر، واعتمد الاستقراء والإطلاع المباشر اتقاء لاحتمال خطأ الآخرين، والمعلوم أن قيمة النص تعود إلى قيمة مصدره، وتعرف أهميته بمدى أهمية الفراغ الذي سده.

أما المنهاج المخطط لدراسة الموضوع، فيمكن تلخيصه في أربع مجالات:

---

<sup>2</sup> - الاقتصاد السياسي لفتح الله العلوم 78/1 ط : 1 ، الدار البيضاء.

**أولاً:** الحياة الشخصية لأبي ذر، وتستهدف التعريف بشخصيته، وأوصافه، وظروف نشأته، وقصة إسلامه، ونشره الدعوى الإسلامية في بلاد .. وما إلى ذلك، كوقت هجرته وأسبابه، وظروفها، وغزوه وجهاده .... ثم التعريف بسلوكه ومكانته العلمية والاجتماعية، وأصل فكره ومبادئ دعوته...

**ثانياً:** الحياة الاجتماعية وظروفها وتطوراتها، وتستهدف البحث من خلال دراسة الحياة في بيئته على ضوء معطياتها عن حقيقة العدالة الاجتماعية التي نادى بها، وماذا عن قيمة الفكر الاجتماعي الذي حملته، وتجلي عمليا في واقع حياته؟

وقد ارتأينا أن نرتاد معالمها الأولى في المؤهلات الفطرية العربية التي نبتت في أرضها، ثم حاولنا أن نلتمس آثارها في سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه، وعلى مستوى المجتمع الإسلامي الأول، كما عرضناها على القرآن، وطرحنا على ضوء شريعته مفهوم المساواة، لنرى مدى اقتدار الإسلام عند ظهوره على خلق مجتمع مثالي، تسوده الأخوة وتنمحي على صفحاته آثار الطبقيّة والامتياز، على النحو الذي اقترح أبو ذر العودة إليه في خلافة عثمان.

ومن عهد الرسول انطلقنا إلى عهد الخلفاء، فبعد أن حددنا موقفه من مبايعة كل منهم، باعتبارها المنفذ الرئيسي إلى دراسة الأوضاع، حاولنا أن نلتمس آثار الفكرة في سلوكهم وفي حقيقة الأوضاع القائمة في كل عهد من عهودهم سلبا وإيجابا.

**ثالثاً:** الردود، والردود في الجانب الاجتماعي تتناول ما يقال عن مصدر آرائهن وهل هي إسلامية أو أجنبية؟ وهل معتدلة أو متطرفة؟ وفي الجانب الاقتصادي تتصل، بما يقال عن طبيعة مذهبه، وماذا عن صلته بما يدعي من الشيوعية المزدكية وغيرها. وسنحاول أن نتسلق الفكرة من جذورها، طمعا في قطف ثمارها. وذلك كأن ندخل إلى الموضوع بمبادئ أساسية يستعين بها القارئ على فهم فكر أبي ذر على حقيقته.

رابعاً: المذهب الاقتصادي: ويستهدف استنباط منهاج اقتصادي يتناول جانباً من الاقتصاد الإسلامي، المتصل بنظامه بنظام الحياة، وذلك على ضوء آراء أبي ذر وحججه وأدلة مذهبه...

والبحث يتمحور حول الدعوى إلى إنفاق الكنوز وفضول الأموال التي تمثل العمومي الفقري في مذهبه. وقد سبق أن دونا بعض آرائه أو حللناها ضمن الإطار العام لـ "منهج الاقتصاد الإسلامي في إنتاج الثروة واستهلاكها" وذلك تحت عنوان "أوهام حول الاقتصاد الإسلامي بسبب ما نسب لأبي ذر".

وقد روعي في كتابة الحياة الشخصية الترتيب التاريخي، كما روعي في دراسة الحياة الاجتماعية - إلى جانب هذا الترتيب - تاريخ نشأة الفكرة وتطورها، وروعي في المذهب الاقتصادي الترتيب الطبيعي كالبدء بقضية الكنوز، وما يترتب عنها، ثم فضول الأموال وما

يترتب عنها، خاصة أن الكنوز من الذهب والفضة تعتبر عند بعض العلماء من أمثال ابن خلدون أصلا لكل ثورة من سواها، كما في قوله: "فهما أصل المكاسب والقنية والذخيرة"<sup>3</sup>.

وتلك هي الخطوط العريضة لتصميم الموضوع على خلاف قواعد المنهجية والالتزام بالأساليب العلمية، والاحتجاج بالألة الأصلية في قضايا التشريع، دأب بعض الكتاب على الإضفاء على الموضوع سيلا من فرض الاتجاهات وأمطروه بوابل من الآراء الشخصية، في شكل مقالات إنشائية صلتها بالأدب أحيانا أقوى من صلتها بالاقتصاد أو الاجتماع الإسلامي، كما تعلن عن نفسها عند قراءة العناوين مثل "بصيص من نور"، "انبلاج الفجر"، "زمار الحي لا يطرب"... الخ<sup>4</sup> فتراكمت الالتباسات حول شخصيته واستدارت هالة من التشكيك حول آرائه. وقد بلغ الأمر "بمكسيم رودنسون" - على ما يلاحظ عليه في الدراسات الإسلامي - إلى أن قال: إنه لم يفرق بين الأسطورة والواقع بالنسبة لأبي ذر<sup>5</sup> ومن هو إذن أبو ذر شخصيا واقتصاديا واجتماعيا؟ وما قيمة آرائه وطبيعة مذهبه؟

### أحمد لسان الحق

---

<sup>3</sup>- المقدمة ، ص : 680.

<sup>4</sup> - أنظر فهرس كتاب الهلال عدد 178 لعبد الحميد جودة السحار.

<sup>5</sup>- انظر الإسلام والراسمالية لمكسيم رودنسون ، ص : 63 ، ط : 1-1968 ، بيروت.

## الباب الأول

### الحياة الشخصية والاجتماعية ما بين سلوك أبي ذر وطبيعة الحياة في بيئته

#### تمهيد

كانت المحاولة في موضوع الحياة الشخصية والاجتماعية لأبي ذر، أن تدرس من خلال البيئة، ويستخلص جوهرها من النصوص، وتعتمد في أصلها على الوقائع والأحداث، وظروف الحياة المختلفة من عهد إلى عهد، ومن بلد إلى آخر، إذ بمعرفة أحوال الرحل وبيئته وقوام مجتمعه، ومقومات شخصيته، ومكوناتها النفسية والاقتصادية والاجتماعية، يسهل فهم فكره، الذي لا يعدو أن يكون زبدة من مخيض حياته، وأثر للواقع الذي يعيشه، ما دام يفكرن كما يعيش، أو يعيش، كما يفكر.

وقد كان أبو ذر عربيا من قبيلة "غفار" دخل في الإسلام، وهو رابع أربعة، أو خامس خمسة، وامتاز عن غيره من السابقين إلى الإسلام، بأن صرخ في وجه الكفر، وأعلن الكفار ضد الطغيان، منذ اللحظة التي أسلم فيها، فنال بذلك مكانة عند الرسول صلى الله عليه وسلم، وانتزع إعجاب صحابته، وقد وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم إكليلا على رؤوس الصادقين فقال: "ما قلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر". كما سيأتي.

حياة أبي ذر حياة رجل يعيش لمصلحة غيره، كالشمعة تحترق لمصلحة غيرها. وشخصيته متكاملة، صالحة لفهم معنى تحقيق التوازن بين المادة والروح، فقد شارك في كل ميدان، وخاص غمار الحياة بشجاعة وقوة، فهو داعية إلى الإسلام في بلاده ومهاجر من أهل الصفة، وعالم مجتهد، ومحدث من كبار المحدثين، وبطل مجاهد، استحق أن يحمل راية بلاده في فتح مكة وحنين، وخليفة لرسول الله على المدينة في عمرة القضاء. شارك في حرب الروم، وفتح قبرص، وحضر مع عمر فتح بيت المقدس، كما يقرأ على صفحات حياته.

وافق على الأوضاع أيام أبي بكر وعمر، وعارضها أيام عثمان، تصدى للنفي وتقبل الحرمان، وضحى في سبيل الثبات على المبدأ، والوفاء لمقتضى المثالية النبوية الموروثة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فيلسوف يقتصد بلا فلسفة، اشتراكي بلا نظريات، ملأ بطبعه الدنيا عدالة ومساواة، وأشرت إليه الأعناق من كل صوب، وانجذبت إليه الآراء على اختلاف الاتجاهات، ومع ذلك، فهو صوفي يعيش للروح قبل أن يعيش للمادة.

وضمن حياته الاجتماعية، سيقوم البحث بنقل صورة حية للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، كما عاشها أبو ذر في صدر الإسلام، بحثاً عن منشأ الروح التي تشبع بها، واستشفافاً للظروف التي حملته على الاستقرار أيام أبي بكر وعمر، ودعته إلى المعارضة أيام عثمان.

وسنرى عند تحليل الأوضاع، أن الحياة من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خلافة عثمان كانت تتسم بسيمة الحق والعدل والمساواة، وتنطبع بطابع البساطة والقناعة والكفاف، وكان يغلب على سيرها روح التضحية ومشاركة الغير، كما يبدو واضحاً في تنازل الأنصار عن استغلال أقساط من أراضيهم لإخوانهم فقراء المهاجرين، وتجلي عملياً في أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم.

فقد اختار الرسول صلى الله عليه وسلم عن طواعية ورضي شظفاً من العيش وكفافاً من الرزق، رغم تدفق المال عليه آخر حياته. وفي كل أحواله لا يعرف الادخار والكنز إلى طبعه سبيلاً، ولا تعرف الدنانير والدرهم في صرته استقرار، وإنما ينفق المال على حبه على اليتامى والمساكين وابن السبيل. أتته دراهم مرة، فقسهما وبقيته منه بقية، فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذ نوم حتى قام وقسمها، وقال: "الآن استرحت".

وفي خلافة أبي بكر وعمر، لم يتغير وجه الحياة عما كان عليه أيام الرسول فقد جد أبو بكر في نشر ألوية الحق والعدل والمساواة، فانتشل الضعيف وساوى عند توزيع الثروة، بين جميع الطبقات، لا فرق بين الذكر والأنثى، والكبير والصغير والحر والعبد... ولما طلب منه أن

يفضل المجاهدين على القاعدين قال: "ذلك شيء ثوابه عند الله وهذا معاش، فالأسوة فيه خير من الأثرة".

وبعده تولى عمر، فسار في نفس النهج وعالج القضايا بنفس الروح، فأنصف المظلوم، وحمل نفسه وولاته على سياسة التقشف، والاقْتِصَار على ما ملكوه قبل التولية، من بدأ من ثورته ما يخالف ذلك، رد شطرا منها إلى بيت مال المسلمين، فاقتدى به الولاية، وتأثر المجتمع بسيرته، ومن أقواله المأثورة: "ومن أقواله المأثورة: "وما من أحد من المسلمين إلا وله في المال نصيب أعطيه أو منعه، ولئن بقيت. الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال، وهو مكانه، قبل أن يحمر وجهه "يعني في طلبه، وكان من الطبيعي أن يتأثر أبو ذر بهذه الروح ويتشبت بها.

وفي خلافة عثمان، بعد أن اتسعت الدائرة، واندمج في المجتمع أقوام عاشورا زما في ظل الحضارة الرومية والفارسية، أخذت الحياة تنفلت من عقال الزهد والتقشف، وتتجه صوب مظاهر الحضارة، وأخذ الناس في الشام والعراق يميلون إلى حياة الرفاهية والتكاثر في الأموال، فعرفت الدنانير والدراهم طريقها إلى الأوعية، والطمع سبيله إلى القلوب، وحل البذخ والترف محل الكفاف والعفاف، فانجرف الولاية بهذا التيار، فتمول بعضهم، وشيد القصور. وكان عثمان بحكم غناه في الجاهلية والإسلام، يوسع على عيالهن ويم يد المساعدة إلى عشيرته، على خلاف ما كان عليه أبو بكر وعمر، فثارت ثورة أبي ذر، وقامت قيامته، كان يقول: "إني لأرى حقا يطفأ، وباطلا يحيى وأثرة على تقي وصالحا مستأثرا عليه".

كان يحتج بعهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلافتي أبي بكر وعمر، وينشد العودة إلى مبدأ الحق والعدالة والمساواة، ويلتمس من عثمان أن يتدخل لصالح الضعيف، ويطالب بإنفاق الكنوز وفضول الأموال، عملا بقوله تعالى: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم)، وكان عثمان يحتج بقوله تعالى: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق).

فنشأ بينها خلاف ذهب أبو ذر إثره إلى الشام، وفي الشام عارض معاوية في سياسة الإنفاق، وفي اكتناز أموال الفيء، وفي بناء قصر "الخضراء" وعارض الأغنياء في أسلوب التبذير والإسراف، وألح عليهم في إنفاق الكنوز وفضول الأموال، توسعة على من لم يحصل بعد على الكفاية، فتجدد الخلاف واحتدم، وانقسم الجمهور إلى مؤيدين ومخالفين، فكتب معاوية إلى عثمان: "أن أرسل إلى أبي ذر إن كان لك بأهل الشام حاجة" فاستقدمه عثمان، ونفاه إلى الربذة، حيث عاش وحده ومات وحده.

ويخفف من هول النفي، أن الأمر لم يتعلق بشخص أبي ذر، بقدر ما يتعلق بمعارضته، كما أن دعوته هي الأخرى، لم تقم ضد شخص عثمان في الخلافة، بقدر ما تقوم ضد الأوضاع الفاسدة في عهده، وهي دعوة إصلاحية، قامت لتعالج بوارد أضخم مشكل عرفه الإسلام منذ نشأته. وفيما تقدم، وما يأتي يكون الجواب عن السؤال السابق: لماذا عارض أبو ذر في الخلافة عثمان، ولم يعارض في خلافتي أبي بكر وعمر؟ أما على فقد كان من أصحابه ومات قبل خلافته. حيث عاش أسباب الفتنة، ولم يحضر اشتعالها ونتائجها. وأثناء التحليل واعتماد الأدلة سنحاول إثبات ما أشرنا إليه في هذا التمهيد.

## الفصل الأول الحياة الشخصية والاجتماعية لأبي ذر وسلوكه

### المبحث الأول شخصية أبي ذر وقصة إسلامه وصرخته في وجه الشرك وردود الفعل نحوه

من هو أبو ذر؟ وكيف تعبد وتوحد قبل البعثة؟

أبو ذر: هو جندب، أو برير بن جنادة بن السكن، وقيل ابن عبد الله، وقيل ابن كعب بن صعير، بن الوقيعه، بن حرام، بن غفار، بن مليل، ابن ضمرة، بن بكر، بن عبد مناة، بن كنانة، بن خزيمه، بن مدرك، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان. أمه رملة بنت الوقيعه.

اختلف في اسمه واسم أبيه، كما تجلى في اختلاف الروايات، بين ما رواه الحافظ ابن حجر، والحافظ الذهبي، وابن سعد، وابن عبد البر، والهيثمي وغيرهم<sup>6</sup> فقد روى الهيثمي في "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد" وابن عبد البر في "الاستيعاب"، فيما أخرجه الطبراني عن محمد بن عبد الله ابن نمرن أن اسمه جندب بن جنادة<sup>7</sup> كما أخرج عن زيد بن أسلم أن النبي دعاه يا برير، وقال الأبى في شرحه على مسلم: "اسمه جندب ابن جنادة على الأصح"<sup>8</sup>.

<sup>6</sup>- الطبقات الكبرى 1957-220/4م بيروت لابن سعد.

<sup>7</sup>- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد 327/9 ط-2-1967م بيروت للهيثمي . الاستيعاب ، القسم الأول ، ص : 252 ، ط - الجديدة - مطبعة نهضة مصر - القاهرة - لابن عبد البر.

<sup>8</sup>-شرح الأبى علي صحيح مسلم 1/6 - ط - 1327 هـ - مصر.

والأظهر أن اسمه جندب، وذلك لما جاء في رواية لابن ماجة أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاه "جنيدب" بالتصغير، ولما رواه أبو نعيم في "الحلية" عند ترجمته من أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه بالمسجد وهو نائم على وجهه، فقال: "يا جندب ما هذه الضجعة؟ فإنها ضجعة الشيطان" ولما رواه المتقي الهندي في "كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال" "الآن النبي صلى الله عليه وسلم سأله عند إسلامه: من أنت؟ فقال: أنا جندب رجل من غفار".

كان أبو ذر على هيئة الأعراب تلف جسمه عباءة سوداء، لونه أسمر، نحيف الجسم، طويل القامة، كما ورد في مسند يعقوب بن أبي شيبة من رواية سلمة بن الأكوع، ويروي ابن سعد في "الطبقات" عن الأحنف ابن قيس أنه قال: "رأيت أبا ذر رجلا طويلا آدم أبيض الرأس واللحية" وقال الحافظ الذهبي: "كان أبو ذر رجلا آدم ضخما جسيما كث اللحية"<sup>9</sup>.

وقال في أوصافه الخلقية قبل إسلامه: "كان أبو ذر رجلا يصيب الطريق، وكان شجاعا، ينفرد وحده بقطع الطريق، ويغير على الصرم في عملية الصبح، على ظهر فرسه، أو على قدميه، كأنه السبع يطرق الحي، ويأخذ ما أخذ. ثم إن الله قذف في قلبه الإسلام، وسمع مقالة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ يدعو مختفيا فأقبل يسأل عنه .. الخ"<sup>10</sup>.

حياة أبي ذر الحقيقية ومزايه الخلقية تبتدئ بالإسلام، الذي نفخ فيه روح الإنسانية الحقة، كما هو الشأن بالنسبة لكثير من الأصحاب. لذلك جاءت نتائج الجهود المبذولة في سبيل التعرف على حياته الأولى ضئيلة بالنسبة لحياته في الإسلام. حيث لم تسفر إلا عما ذكرنا من نسبه وأوصافه، ونبذة عن تعبه قبل الإسلام.

من ذلك ما جاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل، ضمن قصة إسلامه أنه قال: تعبدت قبل بعثه النبي صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين وما ورد في "حلية الأولياء 151/1" وفي "معالم الإيمان" عنه أنه قال: "صليت قبل الإسلام بأربع سنوات" فسأله عبد الله بن الصامت -: كما في

9 - الطبقات 22/4 سير أعلام النبلاء 32/2-1957م دار المعارف القاهرة للحافظ الذهبي.

10- الطبقات الكبرى 222/2 ، سير أعلام النبلاء 38/2.

المسند أيضا - من كنت تعبد؟ فقال: "إله السماء أتوجه حيث وجهني الله عز وجل" وفي صحيح مسلم أنه قال: "صليت يا ابن أخي قبل أن ألقى رسول الله بثلاث سنين" وفي رواية مسلم بسنتين. فقال عبد الله: لمن؟ فقال: لله قال: فأين تتوجه. قال أتوجه حيث وجهني ربي".<sup>11</sup>

عدا الإلهام الذي يمكن أن يحمل عليه تحنت الرسول بغار حراء، قبل نزول الوحي، لم يمل البحث أي محاولة، يعتمدها في التعرف على مصدر عقيدة أبي ذر قبل البعثة، خاصة أن ليس بأيدينا أي دليل نقيمه على إمكان اتصاله بدين من الأديان السماوية، التي سبقت الإسلام، وقد يكون حاله من قبيل ما يعرف عند الصوفية بقضاء السابقة، وانجذاب الأرواح نحو المصير الذي خلفت من أجله، كما يؤخذ من قوله "أتوجه حيث وجهني ربي".

نظير ذلك قول عيسى - وهو ما يزال في المهد: - (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه تمترون)<sup>12</sup>.

فرغم تبات المعجزات، ورغم الاختلاف حول آوان نبوة عيسى، فقول الصوفية بانجذاب الأرواح نحو المصير الذي خلقت من أجله، وحمل عليه تبعد أبي ذر قبل البعثة، أو انطاق الله لها بالأمر المدخر في الغيب، كما هو الشأن بالنسبة لعيسى ينسجم مع الرأي المسلم، والقاضي بأن التكليف - سواء على مستوى النبوة أو الشريعة - يستلزم الرشد، كما دل عليه قوله تعالى: (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين)<sup>13</sup>.

---

<sup>11</sup>- مسلم : نسخة الأبي 202/2-205 - ط - 1 - 1327 مصر.

<sup>12</sup> - سورة مريم، 34.

<sup>13</sup>- سورة القصص ، 13.

## قصة إسلامه وأسبقته إلى الجهر بالإسلام

كان إسلام أبي ذر بمكة في رحلة خاصة. وقصة إسلامه تختلف مدا وجزرا في مصدر عن الآخر. وبالمقارنة يتضح الفرق، وهذه أهم مراحلها في المسند، وتقترب من مراحلها في "حلية الأولياء 157/1".

روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر قال: "خرجنا من قبيلتنا "غفارا" أنا وأمي وأخي أنيس فانطلقنا حتى نزلنا على خال لنا ذي مال، فأكرمنا وأحسن مثنوانا، ثم ارتحلنا سائرين، حتى نزلنا بحضرة مكة، فانطلق أنيس إلى مكة لحاجة له، ولبت طويلا. ولما عاد قلت: ما حبسك؟ قال: لقيت رجلا يزعم أنه رسول الله. قال: قلت: ما قول الناس فيه؟ قال: يقولون إنه شاعر وساحر... فقال أنيس - وكان شاعرا: - قد سمعت قول الكهان، فما يقول بقولهم، ووضعت كلامه في أقراء الشعر، فوالله ما هو بالشعر. والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون " قال أبو ذر: فانطلقت حتى قدمت مكة، وقصدت رجلا من القوم، وقلت: أين الرجل الذي تدعونه الصابئ؟ فقال: الصابئ؟ فما كان من القوم إلا أن مالوا علي بكل مدرة وعظم، حتى خررت مغشيا علي، ولما استفتقت أتيت زمزم فشربت وغسلت عني الدم، فمكثتن بين الكعبة وأستارها حتى جاء رسول الله، ومعه صاحبه أبو بكر، ولما طاف وصلى، أتيته بتحية الإسلام، فقال: عليك رحمة الله، فمن أنت؟ قلت: من "غفار" قال - رواه أيضا ابن سعد، وأبو داود الطيالسي - "إني وجهت إلى أرض ذات نخل، ولا أحسبها إلا يثرب، فهل أنت مبلغ عني قومك؟ لعل الله أن ينفعهم بك، قال: سمعا وطاعة. فانطلقت حتى أتيت أخي أنيسا، فقال: "إني قد أسلمت وصدقت، وأتينا أمنا فقالت: ما لي رغبة عن دينكما، إني قد أسلمت وصدقت. فارتحلنا حتى أتينا قومنا "غفارا" فأسلم بعضهم، وقال آخرون: إن قدم رسول الله أسلمنا. ولما قدم رسول الله المدينة أسلم بقيتهم، فجاءت قبيلة "أسلم" فقالوا: يا رسول الله نسلم على الذي ألم عليه إخواننا من "غفار" فأسلموا "سلم" فقالوا: يا رسول الله لها، وأسلم سالمها الله" رواه البخاري عن أبي هريرة وابن عمر<sup>14</sup> كما رواه مسلم وأبو داود الطيالسي، وابن سعد<sup>15</sup>.

والقصة مروية أيضا في الصحيحين عند البخاري ومسلم وعلى صفتين بينها اختلاف ظاهر. وأكثر الروايتين تداولاً رواية البخاري عن طريق أبي حمزة عن ابن عباس، التي تتضمن أن أبا ذر لما بلغته بعثة الرسول، قال لأخيه أنيس: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرجل، الذي يزعم أنه نبي، يأتيه الوحي من السماء، واسمع من قوله، ثم انتني، فانطلق أنيس، حتى قدم مكة وسمع من قول الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم عاد إلى أبي ذر، فقال: "رأيتته يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاما ما هو بالشعر" فقال: ما شفيتني مما أردت، فتزود وحمل قربة له فيها ماء حتى قدم مكة، فأتى المسجد متمسكا النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه، ويكره أن يسأل عنه، لما يعرفه من كراهية قريش لكل من يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم أو يسأل عنه، حتى إذا أدركه الليل ره علي، فعرف أنه غريب، فأضافه، ولم يسأل أحد منهما صاحبه على شيء، على عادة الضيافة عند العرب. لا يسأل الضيف عن سبب قدومه إلا بعد ثلاث، فلما أصبح حمل قربة وزاده، وظل ذلك اليوم، لا يراه الرسول صلى الله عليه وسلم حتى أسمى، فعاد إلى مضجعه، فمر عليه علي، وقال: "أما أن للرجل أن يعرف منزله الذي أضيف فيه بالأمس؟ فأقامه وذهب معه. لا يسأل واحد منهما صاحبه على شيء، حتى إذا كان اليوم الثالث سأله على بقوله: "ما الذي أقدمك؟ قال: "إن أعطيتني عهدا وميثاقا لترشدني فعلت" وبعد ذلك أخبره بمقصده، فقال: "إنه لرسول الله حقا وإذا أصبحت فاتبعني إليه، فإني إذا رأيت شيئا أخافه عليك قمت كأنني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني، حتى تدخل مدخلي، فانطلق يتبع أثره، حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ودخل معه، فسمع من كلامه، وأسلم مكانه. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم "أرجع إلى قومك وأخبرهم الخبر، حتى يأتيك أمري" قال: "والذي نفسي بيده لأصرحن بها بين ظهرانهم". فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله". فقام إليه القوم، يضربونه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكب عليه، وقال: "ويلكم أستم تعلمون أنه من "غفار" وأن طريق

14 - البخاري : نسخة الفتح 7-354/ ط 1959 - م القاهرة.

15 - مسند أبي داود الطيالسي حديث 457- ط 1-1321 - هـ الهند . الطبقات الكبرى ، 4/222 صحيح مسلم : نسخة الأبي 6/205.

تجارتكم إلى الشام عليها؟ "فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها. فضربوه وثاروا إليهن فأكب عليه العباس مرة أخرى<sup>16</sup>.

### صرخته في وجه الشرك ورود الفعل نحوه

تلك كانت القصة في رواية الإمام البخاري، ويرويها الإمام مسلم بطريقتين مختلفتين: إحداهما شبيهة برواية الإمام أحمد، وتمتاز بأنه أوصاه الرسول صلى الله عليه وسلم بتبليغ الدعوة الإسلامية إلى قومه، والأخرى شبيهة برواية البخاري، وتمتاز بأن أعلن الدعوة، وهي ما تزال سرية، على الرغم من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وتحذيره<sup>17</sup>.

وفي ذلك يروي الهيثمي ضمن قصة إسلامه فإنه قال: "أقمت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمني الإسلام، وقرأت شيئاً من القرآن، فقلت: يا رسول الله، إنني أريد أظهر ديني، فقال صلى الله عليه وسلم: "إنني أخاف عليك أن تقتل، قلت: لا بد منه، وإن قتلت، فسكت عني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقريش حلق يتحدثون في المسجد، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فتنفضت الحلق، فقاموا إلي يضربوني حتى تركوني كأني نصب أحمر، وكانوا يرون أنهم قد قتلوني. ففقت فجننت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى ما بي من الحال، فقال: ألم أنك؟ فقال: يا رسول الله حاجة كانت في نفسي قضيتها<sup>18</sup>، والحاجة المقضية تأدية الواجب المقدس. إننا قد ضيعنا ما ضحى السابقون في سبيله.

وهكذا نرى الرسول يأمر أبا ذر رافة به أن يلتحق ببلاده، حتى يأتيه أمر الله، إيماناً منه بوعده الذي تكفل بنصرته، وخذلان أعدائه، ولكن أبو ذر لم يقو على الكتمان، ولم يملك

<sup>16</sup>-صحيح البخاري : نسخة الفتح 173/8.

<sup>17</sup>- صحيح مسلم : نسخة الابي 304/6.

<sup>18</sup>- مجمع الزوائد 327/9 الاستيعاب القسم الأول ، ص : 252.

شعوره الفياض، لما سطع نور الحق على قلبه، فأرسلها صرخة مدوية متجلجلة، بين ظهراني قوم جفاة طغاة، أشربوا جهلا وحب الأوثان والأصنام، قاوموا الحق بعنف فانتصر، وحاولوا - عبثا - معارضة رسالة السماء: رسالة الحق والعدل والمساواة.

إن الإصطدام الواقع بين أبي ذر وعظماء قريش، لم يكن من نوع الاصطدامات التي تقع بين شخص وآخر، وإنما هو عراقك يتجه في عمقه نحو الاصطدام بين إيجابية "لا إله إلا الله" التي جاءت لتحرر جسم الإنسان من الرق، وفكره من الخرافة، واقتصاده من الاكتناز والاحتكار، ومصيره من التحكم والاستبداد، وبين سلبية الوثنية القريشية القائمة على أساس النخوة الجاهلية، والطبقية الاجتماعية، والتعظم بالفوارق السلالية الموروثة. فكان أبو ذر من بين أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم أول من تسلح بكلمة التوحيد "لا إله إلا الله" التي ترمز إلى انعتاق الإنسان، وتحرره من كل العبوديات المادية المقيتة، فأعلنها صرخة كانت بدايتها تحطيم خرافات الأوثان والأصنام، وظلم عبادها بمكة، ونهايتها تقويض عروض القياصرة والأكاسرة وإقطاعية ملوكها بالشام والعراق وما إليهما .. ومن الطبيعي أن يقع الاصطدام بين اتجاهين مختلفين: اتجاه خرافي، أخذ إلى الأرض ن واتجاه سماوي، يرنوا إلى إصلاح المجتمع، وتطهيره من آثار الشعوذة والتضليل، ثم توجيهه إلى معركة الحياة الكريمة النبيلة.

دأبت حكمة الله البالغة على أن يكون لكل فكرة إصلاحية معارضون، ولكل رسالة سماوية أعداء ... بمعارضتهم ينشرون مآثرها، ويعرفون بحاسنها، وبفضل مقاومتهم تتقوى شوكتها، فتكتسب أنصارا يعزرونها ويناصرونها ويستमितون في سبيل نشر مبادئها، ويبذلون النفس والنفيس في سبيل المحافظة على كيانها والذود عن حياضها. وصدق الشاعر إذ يقول:

وإذا أراد الله نشر فضيلة      طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت      ما كان يعرف طيب عرف العود

ليست المقاومة الجنوبية التي لقيتها أبو ذر من كفار قريش، إلا جزءا من المعارضة الشديدة التي يلقاها آنذاك كل شخص شرح الله صدره للإسلام، وهدى قلبه إلى مطمئن البر.

وقد امتحن في عقيدتهم - عد أبا ذر - عليّة من الأصحاب، فصابروا ورابطوا، ضاربين، بمواقفهم البطولية، أروع الأمثلة الحية في الثبات على الحق، والصمود في وجه الطغيان، بدون عدة إلا الثبات على المبدأ، ولا سلاح إلا قوة الإيمان، وصدق الله العظيم إذ يقول: "الم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنونهم ولقد قتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين".<sup>19</sup>

كان من بين هؤلاء العظام سيدنا عثمان، الذي أوثقه عمه الحكم ابن أبي العاصر بن أمية رباطا، وقال فيما رواه ابن سعد: "أترغب عن ملة آباءك إلى دين محدث؟ والله لا أحلك أبا، حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين" فقال عثمان: "والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه"<sup>20</sup> ، فلما رأى الحكم صلابته في الحق خلى سبيله. ومثله الزبير بين العوام الذي كان عمه يرسل عليه الدخان، وهو مقيد فقواه الله، وسعد بن أبي وقاص الذي اصطدم بمعارضة والدته، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله في شأنه: (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما)<sup>21</sup>.

ذلك نموذج لرجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فلخم تلت قناتهم تحت تهديدات الطغاة، ولم نفل عزائمهم تحت وطأة الأذى والعذاب.

بل تحمل نبي الله أكبر أذى يتحملة البشر، في سبيل تأدية الرسالة التي حملها ، وكلف بتبليغها... استهزأ به المستهزئون وسخروا ، ونبزوه بـغلام أبي طالب تارة، وابن أبي كبش أخرى، وحثوا التراب على رأسه، وهو سائر، ورموا عليه فرث جزور - كما حكى ابن مسعود من رواية البخاري - وهو ساجد، وحاصروه وعشيرته في الشعب ثلاث سنوات ، حتى أكل القوم جهدا أوراق الشجر، وأرسل عليه طغاة ثقيف سفهاءهم يرمونه بالحجارة ، حتى أدموا عقبه، فلم

<sup>19</sup>- سورة العنكبوت 2.

<sup>20</sup>- الطبقات الكبرى 55/3.

<sup>21</sup>- سورة العنكبوت 7.

يهن ولم يضعف ، ولم يزد على أن قال : "اللهم أهد قومي ، فإنهم لا يعلمون"، فقال جبريل :  
"صدق من سماك الرؤوف الرحيم"<sup>22</sup>.

وبذلك يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد ضرب بثباته وحلمه وشدة تحمله، أروع الأمثلة للعبد المنيب، الواثق بربه المبتهل إلى مولاه، كلما شعر بضيم، أو ألم به هوان. فكان من دعائه: "اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعف، وأنت ربي إلى من تكلني؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي"<sup>23</sup>.

وفي آخر المطاف اجتمع الكل بدار الندوة، وتأمروا على قتله، فكانت الهجرة، وكان النصر والانتصار، وبدأت أعلام العزة والمناعة، فلم يبق لأبي ذر وغيره من السابقين إلى الإسلام - أمام هذه المواقف - إلا أن يتفقوا أثره، ويتلمسوا الهداية في سيرته. وهذه سنة الله في الأنبياء وأتباعهم في الصبر والثبات والصفح الجميل، وتلك طبيعة الكفرة المعاندين في الظلم والاضطهاد: (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون).

#### رابع أربعة سبقوا إلى الإسلام

إن قصة إسلام أبي ذر، وما أحدثت من ردود فعل، وما لقيه من الأذى لترسم لنا صورة حية لوضعية المجتمع الجاهلي بمكة، قبل تأسيس المجتمع الإسلامي الأول بالمدينة، فقد دخل في الإسلام، وهو رابع أربعة أو خامس خمسة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لما يجهر بالتبليغ، وتلك التلة السابقة إلى الإسلام من الضعفاء المستضعفين، ما زالوا يسرون بعبادة ربهم ويخفونها عن طغاة قريش يتسللون لوذا إلى بطون الشعاب ومسيل الأودية، حين يريدون الصلاة، ويخافتون بقراءة القرآن، خوفاً ، عين تراهم، أو أذن تسمعهم، وهم على قلتهم لا يقوون على

<sup>22</sup> - نور اليقين ، ص : 67 ط - 12-1955 للشيخ محمد الحضري - القاهرة.

<sup>23</sup> - نور اليقين ن ص 66 ط - 12-1955 للشيخ محمد الحضري - القاهرة.

مجابهة أعدائهم، ولا يملكون حتى الاجتماع بنبيهم إلا خفية، وفي دار "الأرقم بن أبي الأرقم" أحيانا.

ومن الصعب جدا أن نتعرف على أسماء من سبقه إلى الإسلام، وهل هم من أهل البيت أو خارجه؟ على أن الثابت عند علماء السير أن أول نفس زكية شرفها الله بنور الإسلام، هي خديجة بنت خويلد الأسدية، وزوجها عليه السلام، وابن عمه علي ابن أبي طالب، وكان من الصبيان، وزيد بن حارثة مولاه، وزوجته أم أيمن: والدة أسامة بن زيد. هؤلاء كلهم من أهل البيت، وأول من أسلم خارج البيت أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، وقد دعا لحينه خمسة من كبار الصحابة، فأسلموا على يده. وهم: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير ابن العوام، وعبد الرحمان بن عوف، وسعد بن أبي وقاص<sup>24</sup>.

إن كثيرا من المصادر منها "الاستيعاب" لابن عبد البر "ومجمع الزوائد" للهيتمي و"حلية الأولياء (157/2)" لأبي نعيم، قد اقتصرتا على أنه دخل في الإسلام، وهو رابع أربعة، أو خامس خمسة. وفي ذلك يروي الهيتمي فيما أخرجه الطبراني عن جبير بن نفيير، قال: "كان أو ذر يقول: لقد رأيتني ربع الإسلام، لم يسلم قبلي إلا النبي وأبو بكر وبلال"<sup>25</sup>.

وورد في "منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال" عن أبي ذر أنه قال: "كنت ربع الإسلام. أسلم قبلي ثلاثة نفر: النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وبلال وأنا رابع". هذه الرواية تتعارض مع كثير من الروايات التي تعطي الأسبقية لزيد بن حارثة، كما تتعارض مع ما سيأتي من قول أبي ذر لعبادة بن الصامت فيما ذكره الطبراني في التاريخ: "أما أنت يا أبا الوليد فقد أسلمت قبلي، ولك السن والفضل علي، كما سيأتي تأكيده بحديث رواه الإمام أحمد في "المسند".

<sup>24</sup>- نور اليقين ، ص : 30.

<sup>25</sup>- مجمع الزوائد ، 327/9.

وإلى جانب هذه الرواية، يقول الأبى في شرحه لصحيح مسلم: "ألم بعد أربعة"<sup>26</sup> ويقول الحافظ الذهبي في "سير أعلام النبلاء" وابن سعد في "الطبقات": كان خامس خمسة في الإسلام، وكان أحد النجباء.

### من أصحاب النبي السابقين إلى الإسلام<sup>27</sup>

وأيا كان الأمر فأبو ذر - سواء مثل ربع الإسلام أو خمسة - يعتبر أحد النجباء الحائزين قصب السبق، فهو - كما جاء في كثير من المصادر - أول من حيي الرسول صلى الله عليه وسلم بتحية الإسلام<sup>28</sup>، وأول من صدع بالحق، وصرخ في وجه الظلم، وتحمل الأذى في سبيل إعلاء كلمة الحق. دخل في الإسلام، وثار ضد الوثنية والنخوة الجاهلية، ومات فيه ن وهو يكافح الاستبداد والمحسوبية والأثرة ... وبين البدء والنهاية صورة من الصراع العنيف.

### المبحث الثاني

### قيام أبي ذر لدعوة إلى الإسلام في بلاده

### وهجرته وجهاده

### دعوته إلى الله ... أسسها وشروطها في كل زمان ومكان

عاد أبو ذر من مكة إلى قبيلته "غفار" بعد أن أسلم وسطع نور الإيمان على فؤاده، وانفتحت سبل الحق أمام عينه، واستنارت معالم الرشد في حياته: عاد رسول خير إلى بلاده وذويه، يدعوهم إلى مكارم الأخلاق، والتحلي بالفضيلة واطرا الرذيلة، ومناذرة العبادات المضللة، والإيمان بالخرافات والأوهام، عاد يدعوهم إلى الإيمان بالإله الحق، بديع السماوات والأرض، وإلى اتباع ما جاء به محمد بن عبد الله: رسول الإنسانية، ورسول الحق والعدل

<sup>26</sup>- شرح الأبى على صحيح مسلم 301/6.

<sup>27</sup> - الطبقات الكبرى 224/4 سير أعلام النبلاء 31/2.

<sup>28</sup> - البداية والنهاية في التاريخ 164/7 لأبي الفداء ط : 1932 - م - مصر - شرح الأبى على صحيح مسلم 167/7.

والمساواة. منقذ العرب من ظلمات الجهل إلى نور العلم، وهادي البشرية جمعاء إلى سبيل الوئام والإخاء، وإلى ما فيه الخير والسعادة....

كان أبو - بعد أن هداه الله إلى الإسلام - صلة وصل بين "غفار" ورسالة السماء. كان يتردد ما بين مكة وقبيلته، يرد على الرسول صلى الله عليه وسلم مرة تلو الأخرى ليأخذ لروحه - كما يأخذ المادي لجسمه - ما يتقوت به، وهو - والحالة هذه - مؤمن بوعد الله بالنصر للإسلام وخذلان أعدائه، تصديقا لقول النبي: "ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيتك أمري" فقام عن ساق الجد، يدعو الناس إلى دين الله، وفاء لخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم له عند إسلامه: "فهل أنت مبلغ عني قومك؟ لعل الله أن ينفعهم بك".

وفعلا نفع الله به قبيلتين عظيمتين من القبائل العربية، ولم يمض الزمان طويلا حتى انتشر الإسلام بفضل دعوته بين أحياء "غفار" و"أسلم"، ودخل النا في دين الله أفواجا، وكانت أمنيته الغالية أن يرى راية الإسلام مرفرفة على بلاده، وأن يحقق الله وعده ويزور النبي صلى الله عليه وسلم قبيلته. وقد فعل، ولم تمض إلا أيام قلائل حتى نصر الله عبده وأنجز وعده. فزار النبي صلى الله عليه وسلم "غفار" و"ألم" ودعا لهما بدعائه السابق: "غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله"<sup>29</sup> فاستشعر وعظمة "سبعة أموال لا مولى لهم إلى الله: قريش والأنصار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار"<sup>30</sup>.

وعند قيام أبي ذر بالدعوة في بلاده كان الرسول صلى الله عليه وسلم في آن واحد - يدعو إلى الله في مسقط رأسه، فقد دأب عليه السلام على أن يدعو قومه قريشا كلما تجمعت في أنديتها. وفي سبيلها كان يرتحل إلى المواسم والأسواق، ويعرض دعوته على مختلف القبائل، بعدما اتضحت مناهجها وأهدافها، وتبلورت مبادئها في معاملات وسلوك أصحابه، مصداقا لقوله

<sup>29</sup> - رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي بروايات مختلف وزاد في رواية الإمام أحمد "وعصية قصت الله ورسوله".

<sup>30</sup> - الأموال للداودي، ص: 324، ص: 342، تحت رقم 98 ق.

تعالى: (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وام أنا من المشركين).<sup>31</sup>

فكانت الدعوة إلى الله بمقتضى قوله تعالى: "(أنا ومن اتبعني) من حق الرسول صلى الله عليه وسلم بالأصالة، ثم بالتبعية من حق من اهتدى بهديه، وأحسن اتباعه، ابتداء من أصحابه، ثم من دونهم إلى قيام الساعة، وهذا ما يفسره قول الأنصار:

جئت شرفت المدينة ومرحبا يا خير داع

بعد قولهم:

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

فأمر الدعوة إلى الله بقيام الذات العالية، التي تتصل بها. ومن نتائجها في منطوق الآية السبيل الواضح، والمحجة البيضاء، التي يختلف ليلها عن نهارها وسيلة وغاية. ومن شروطها أن تكون ظاهرة خالصة لله، الذي تنسب إليه، وأن تكون خالية من أي هدف، أو غرض دنيوي مهما كان ضئيلا، وتلتزم بأسلوب المسالمة والملاينة والمطاوعة عملا بقوله تعالى خطابا لنبيه: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتالي هي أحسن) ومؤهلاتها الأساسية تعود إلى اعتبار البصيرة، قبل أن تعود إلى فلسفة الألفاظ وقعقتها. وقد يخطئ في هذا العصر من اعتمد فيها على الشهادة الدراسية، والعلوم النظرية، دون الأخذ بالمؤهلات الحقيقية المسطرة في الآية. وهي السبيل الواضح وإخلاص الدعوة إلى الله والاعتماد على البصيرة، والابتعاد عن شوائب الإشراف بالله.

فالشهادات التي حملها الرسول صلى الله عليه وسلم وهو النبي الأمي، وحملها معه أصحابه ممن لا يقرأون ولا يكتبون، وبها أثروا في الناس وحولوا نفوسهم من ظلمة المادة وكثافتها إلى نور الإيمان وانطلاقته، هي شهادة الطهر والصفاء، وإخلاص النية في السر

<sup>31</sup>- سورة يوسف، 108.